تطور الدبلوماسية الأمريكية

من العزلة إلى سياسة عالميـة استعمارية

لم يكن خطاب الرئيس ترومان فى البرلمان الأمريكى (الكونجرس) وهو الخطاب الذى رسم فيه صورة قاتمة لعالم ما بعد الحرب ، وأعلن عزم الولايات المتحدة على مساعدة اليونان وتركيا ، ومقاومة خطر الدكتاتورية والشيوعية الذى ينساب رويداً إلى بعض نواحى القارة الأوربية ويهدد مصاير الشعوب الحرة ، مفاجأة لأولئك الذين تتبعوا سير الدبلوماسية الأمريكية فى عشرة الأعوام الأخيرة ، ولكنه كان بلا ريب عهداً جديداً يؤكد أهمية الطور الجديد الذى تجتازه الدبلوماسية الأمريكية فى عصرنا .

وقد تقلبت الدبلوماسية الأمريكية فى طورين بارزين ، لزمت أولها زهاء قرن من الزمان ملازمة قوية أمينة ، وهو طور العزلة السياسية التى لبثت دهراً أبرز ظاهرة فى السياسة الأمريكية ، ولم تعدل عنه إلا بفعل أحداث عالمية خطيرة رأت أنها لا تستطيع إزاءها المضى فى سياسة الانكماش والجمود القديمة ، وأنه لا بد لها أن تنزل إلى ميدان الحوادث الدولية لتأخذ فى توجيهها بنصيب يتفق مع قوتها ومكانتها وغناها .

ويقترن طور العزلة السياسية بتاريخ الولايات المتحدة طوال القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر . ولا بد لنا لفهم البواعث التى حدت بالسياسة الأمريكية إلى مجانبة عزلتها المأثورة أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر حينما اتخذت أمريكا قرارها الشهير بانتهاج العزلة السياسية . ففى ذلك الحين كانت الولايات المتحدة حديثة عهد بالحرية والاستقلال ، وكانت أوربا قد هبت عليها عقب الحروب النابوليونية ريح من الطغيان تؤازره الملوكيات الأوربية المحافظة فى روسيا وألمانيا والنمسا ، وهى التى عقدت فيما بينها المعاهدة المقدسة لتتعاون على قمع الحركات الحرة ، وكانت أم أمريكا اللاتينية التى تحتل أواسط أمريكا وأمريكا

الجنوبية ، قداستطاعت أن تفوز بالتحرر من نير سيدتها القديمة أسبانيا . وكانت الولايات المتحدة وهى أقوى الأمم الجديدة المحررة تخشى عدوان الدول الأوربية القوية ، وتخشى أن تعود هذه الدول فتحاول غزو الأمم الأمريكية المحررة واستعمارها ، قبل أن يكتمل استقرارها ، وبذلك تهدد سلامتها وسلام القارة الأمريكية كلها . عندئذ اعتزمت الولايات المتحدة أن تصارح أوربا بنية كانت تساورها منذ عهد واشنطون ذاته ، فاتخذت قرارها الشهير الذى أعلنته على لسان الرئيس مونرو فى ديسمبر سنة ١٨٢٣ .

ويتلخص تصريح الرئيس مونرو وهو الذى ألقاه أمام البرلمان فيما يأتى : « إن الولايات المتحدة لا شأن لها بالحروب الأوربية . ولكنها تحذر الدول الأوربية وتنذرها أن أية محاولة من جانبها لبسط سيادتها على أية بقعة من نصف الكرة الغربى سوف تعتبر خطراً على سلام الولايات المتحدة وسلامتها ، وإن حكومة الولايات المتحدة لن تحاول التدخل فى شأن المستعمرات الحاضرة فى أمريكا أو الأراضى التابعة للدول الأوربية ، ولكنها لن تسمح أن تقوم هذه الدول بأى ضغط أو تدخل يراد به اضطهاد أية دولة من دول أمريكا اللاتينية الجديدة أو السيطرة عليها . » ومعنى ذلك أن أمريكا لن تسمح لأية دولة من الدول الأوربية أن تحاول استرداد مستعمرات أسبانيا المحررة أو السيطرة على أية بقعه اخرى من القارة الأمريكية فى المستقبل سواء بالفتح أو الشراء أو التعاقد .

تلك خلاصة التصريح الأمريكى الشهير الذى عرف من ذلك الحين بمبدأ مونرو ، والذى غدا أساساً لسياسة أمريكا الخارجية يؤكده كل رئيس جديد للولايات المتحدة ، ويعتبر بمثابة أصل دستورى لا محيص عنه ، وذلك بالرغم من كونه لم يدمج فى الدستور ، ولم يصدر به قانون ولم يعترف به كأصل من أصول القانون الدولى

وقد غدا مبدأ مونرو من ذلك التاريخ شعار الولايات المتحدة ، لا تبغى به بديلا أو تجعله موضع مساومة ، وتحرص على أن تضمن كل معاهدة دولية تعقدها تحفظاً خلاصته أنه لن يعتبر شئ فى المعاهدة يخالف أو ينقص أو يضعف من مبدا مونرو .

وشهرت أمريكا مبدأ مونرو فى وجه فرنسا سنة ١٨٦٥ حينما أرسل نابليون لثالث حملته إلى المكسيك محاول أن تنشئ فيها إمبراطورية على رأسها

مكسمليان فون هبسبورج ، وهددتها باستعمال القوة المسلحة لمقاومة محاولتها . ولكن فرنسا ما لبثت إزاء تطور الحوادث وثورة الوطنيين أن اضطرت إلى الانسحاب وكان هذا أعنف تطبيق لمبدأ مونرو لجأت إليه أمريكا فى القرن الماضى .

وكان مبدأ مونرو ما يزال أساس الدبلوماسية الأمريكية فى أوائل القرن الحالى ، وقد لخصه الرئيس ولسون فى قوله : «إن مذهب مونرو تؤيده كل موارد الولايات المتحدة » يلخص فى قولها لباقى دول العالم « ارفعوا أيديكم عن نصف الكرة الأمريكى » .

وبالرغم من أن مبدأ مونرو كان أعظم سياج لحماية الدول الأمريكية اللاتينية من الاستعمار الأوربى فإن هذه الدول كانت تشعر دائماً بأن مبدأ مونرو يهدد سيادتها فى الوقت نفسه ، ويجعلها دائماً تحت رحمة اتجاهات السياسة الأمريكية . وقد تدخلت أمريكا فى الواقع أكثر من مرة فى شؤون بعض الدول الأمريكية الصغرى مثل هايتى وكوبا وسان دومنجو ونكاراجو وبناما . واتهمت أمريكا بأنها تعمل تحت ستار مبدأ مونرو لفرض سيادتها على دول أمريكا اللاتينية وإخضاعها لنفوذها الاقتصادى . ولكن الولايات المتحدة كانت تؤكد دائماً بأنها ليست لها أية غايات استعمارية فى أمريكا اللاتينية

ولما نشبت الحرب الكبرى وقع اعظم تطور فى الدبلوماسية الأمريكية ، وكان من جراء اعتداء الغواصات الألمانية المتكرر على السفن الأمريكيةو إغراقها أن دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء فى أبريل سنة ١٩١٧ . ولكن هذا السبب الظاهر كان يقترن بفكرة أبعد مدى ؛ فقد أشار الرئيس ولسون فى خطابه الذى طلب فيه من البرلمان إعلان الحرب إلى « أن العالم يجب أن يكون ملاذاً أميناً للديمقراطية» . وهكذا وقفت أمريكا إلى جانب جبهة الحلفاء الديمقراطية ضد ألمانيا الإمبراطورية ، وخاضت بذلك أول حرب أوربية فى تاريخها ، وكان ذلك أول خروج صريح على مبدأ مونرو وسياسة العزلة الأمريكية .

وفى أوائل سنة ١٩١٨ ألقى الرئيس ولسون دعوته إلى عقد الصلح « دون نصر » وأذاع مبادئه الشهيرة لتكون دستورا لعقد الصلح ، ومنها النص على حرية البحار ، وإلغاء الحواجز الجمركية ، وخفض السلاح ، وتسوية المسائل الاستعمارية بمراعاة مصالح الشعوب ذات الشأن ، وإنشاء عصبة أمم

تشرف على تحقيق الاستقلال السياسى والسيادة الإقليمية لجميع الأمم كبيرها وصغيرها . ولما عقدت الهدنة مع ألمانيا وبدأت مباحثات الصلح فى فرساى (أوائل سنة ١٩١٩) كان الرئيس ولسون نفسه على رأس الوفد الأمريكى . ولكن ولسون لم يستطع أن يحقق فى مؤتمر الصلح كل ما كان يرمى إليه ، وكان أكبر عزاء له أن دستور عصبة الأمم أُدمج فى معاهدة فرساى واعتبر جزءاً لا يتجزأ منها . على أن المعاهدة لم تحز قبول البرلمان الأمريكى . وبالرغم مما بذله ولسون من وسائل الاقناع والمحاجة ، وبالرغم مما ألقاه فى البلاد من خطب رنانة لتأييد السياسة التى سار عليها ، فقد رفض مجلس الشيوخ الموافقة على معاهدة فرساى . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى أخفق الديمقراطيون فى انتخابات الرياسة وانتخب للرياسة مكان ولسون رئيس جمهورى هو ورن هاردنج بأغلبية ساحقة . وبذلك أبدى البرلمان وأبدت الأمة كلها عداءها الصريح لسياسة ولسون الخارجية ، وهى السياسة المنطوية على التدخل فى الشؤون الأوربية ، وإيثارها لسياسة العزلة القديمة والتمسك بمبدأ مونرو .

واستمرت الدبلوماسية الأمريكية مدى حين على عزلتها المأثورة ، ولم تقبل تورطا فى المشاكل الأوربية حتى بدت نذر الخطر من جديد ، يذكيها ما أبدته إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية من ضروب الاعتداء والتحدى . ولما بدت طلائع الحرب العالمية الثانية واضحة ، رأى الرئيس روزفلت — وكان الحزب الديمقراطى قد عاد يومئذ إلى الرياسة — فى سياسة التحدى النازية والفاشستية ما يهدد سلام العالم وسلام أمريكا بطريق غير مباشر . فبذل وساطته لدى هتلر وموسولينى لكى يعملا على اجتناب أسباب الحرب والمعاونة لصون السلم فلم يثمر سعيه . ووقعت الحرب ، وظهر يومئذ من قوة ألمانيا وشدة بأسها ، وما أتيح لها فى فترة قصيرة من اجتياح فرنسا ودول أوربا الغربية كلها ، أن الخطر على الديمقراطية فى هذه المرة أعظم وأبعد مدى ، كما ظهر من روعة سلاح الطيران الألمانى وامتداد نشاطه حتى الجزيرة الخضراء جرينلند ، وامتداد نشاط الغواصات الألمانية حتى شواطئ الاطلنطيق الغربية ، أن الخطر ليس بعيداً عن أمريكا . وكان الرئيس روزفلت يرى منذ البداية ، ومعه فريق كبير من الشعب الأمريكى ، فى الاعتداء النازى تهديداً صريحاً لسلامة أمريكا ، وأن سقوط فرنسا بهذه السرعة ، وضعف انجلترا ووقوفها بمفردها فى الميدان من أخطر النذر التى تهيب بأمريكا

أن تعمل لتدارك الموقف ؛ ولذلك لم يدخر الرئيس روزفلت جهداً فى معاونة الجبهة الديمقراطية ومعاونة انجلترا بمختلف الوسائل الاقتصادية والعسكريه قبل أن تدخل أمريكا الحرب ، ولم يحجم عن توقيع ميثاق الأطلنطيق مع مستر تشرشل وهو صريح فى التحالف على مقاومة الاستبداد النازى والقضاء عليه . ولم تأت أواخر سنة ١٩٤١ حتى كان الرأى العام الأمريكى يؤيد روزفلت ويناصره فى سياسة التدخل فى الحرب . وما كاد الاعتداء اليابانى يقع على بيرل هاربور فى شهر ديسمبر حتى دخلت أمريكا الحرب العالمية الثانية توًّا إلى جانب الجبهة الديمقراطية وضد ألمانيا و إيطاليا واليابان .

ولم يكن اشتراك أمريكا فى الحرب فى هذه المرة مسألة عاطفية أو مثالية فقط على نحو ما كان يغلب على تدخلها فى الحرب العالمية الأولى . ولكنه يرجع إلى شعور أمريكا شعوراً عميقاً بأنها تدافع عن سلامها وكيانها وسلامة نظمها ، و إلى الاقتناع بأن سقوط الديمقراطية فى أوربا وسقوط انجلترا حصنها الباقى أمام الغزاة النازيين نذير بسقوط الديمقراطية فى أمريكا . ومن ثم فقد نزلت أمريكا هذه المرة إلى الميدان بكل قوتها ومواردها ، واشتركت قواتها فى سائر الميادين : فى آسيا و إفريقية وأوربا ، وأمدت جميع دول الحلفاء بالعتاد والسلاح ، واضطلعت بأكبر قسط فى غزو التحرير فى أوربا ، ولبث رئيس الولايات المتحدة طول أيام الحرب أحد الأقطاب الثلاثة الذين يوجهون مصايرها فى مؤتمراتهم المختلفة . ولما انتهت الحرب العالمية الثانية بظفر الحلفاء أو الأمم المتحدة ، اشتركت أمريكا فى احتلال ألمانيا وإيطاليا واليابان ، واشتركت فى تنظيم شروط التسليم وفى مؤتمر بوتسدام وفى إعداد معاهدات الصلح مع إيطاليا وغيرها من الدول التى كانت محالفة لألمانيا . وهى تشترك فى مؤتمر وزراء الخارجية الذى تقرر إنشاؤه فى مؤتمر بوتسدام منذ البداية . وقد قامت بدور بارز فى مؤتمر موسكو الذى الذى اجتمع لتقرير مصير ألمانيا . والخلاصة أن الدبلوماسية الأمريكية تأخذ اليوم بأعظم نصيب فى توجيه السياسة الدولية وتسوية المشكلات الأوربية والعالمية .

أضف إلى ذلك كله أن أمريكا قامت بنصيب بارز فى إعداد دستور هيئة الأمم المتحدة ، وهى اليوم من أبرز أعضائها و إحدى الدول الخمسة ذات الكراسى الدائمة فى مجلس الأمن . وفى امريكا ذاتها يوجد مركز الأمم المتحدة و يجرى نشاطها الدولى الخطير

وإذاً فنحن نشهد عهداً جديداً للدبلوماسية الأمريكية نبذت فيه عزلتها القديمة للمرة الثانية ، ونبذتها فيه هذه المرة بصورة مطلقة ، ونزلت إلى معترك المشاكل العالمية بكل قوتها ومواردها . بل يبدو فوق ذلك أن أمريكا قد وطنت النفس على أن تنزل فى الوقت نفسه إلى ميدان التنافس الاستعمارى . وقد جاء خطاب الرئيس ترومان الخاص بمساعدة تركيا واليونان دليلا واضحاً على هذا الاتجاه الجديد . ولم يخف الرئيس ترومان أن أمريكا تقصد بهذه العاونة المالية والعسكرية الواسعة المدى للدولتين اللتين تقعان فى المدخل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط أن تعمل، على صد الزحف الروسى نحو هذه المنطقة ووقف التيار الشيوعى الذى يسيطر اليوم على رومانيا ويوجوسلافيا وبلغاريا . وقد كانت انجلترا حتى اليوم تتولى مهمة حراسة هذه المنطقة وتعمل بكل ما وسعت على معاونة تركيا واليونان لمقاومة سياسة الاندفاع الروسى ، فلما لم تستطع المضى بمفردها فى تلك المهمة قامت أمريكا تؤازرها وتأخذ على عاتقها بذل هذه المعاونة وذلك باتفاق بين الدولتين . ومن الواضح أن المصالح الأمريكية البريطانية العظيمة فى الشرق الأوسط والتى تتركز حول استغلال مناطق الزيت الغنية فى إيران والعراق وجزيرة العرب هى الهدف الأول المقصود بالحماية ، وذلك مهما حاول الرئيس ترومان أن يسبغ على أقواله لوناً عاطفيا مثاليا يتعلق بحماية الأمم الديمقراطية المحبة للحرية من عدوان الشيوعية والنظم الدكتاتورية . بل نحن لا ننسى أن الرئيس ترومان يعمل بمساعدته لتركيا على دعم الدكتاتورية العسكرية الكمالية التى تفرض على تركيا منذ خمسة وعشرين عاماً حكم طغيان مطبق ، ويعمل بمساعدته لليونان على دعم نظام فرض على الشعب اليونانى بقوة الحراب البريطانية .

والحقيقة السافرة هى أن الدبلوماسية الأمريكية تتأهب لمقارعة سياسة التوسع الروسية ومقاومتها . وقد غدت منطقة البحر الأبيض الشرقية والشرق الأوسط مسرحاً هاما من مسارح هذا النضال . وأمريكا تحرص مثل بريطانيا على ألا يتسرب الروس إلى الدردنيل أو بحر إيجه والخليج الفارسى . وتحاول أمريكا فى الوقت نفسه أن تحصل على قواعد بحرية فى البحر الأبيض المتوسط ؛ ولعلها تحصل على قاعدة فى قبرص ، وفى رودس . ومن المعروف أنها تبدل مثل هذه المحاولة بالنسبة لطرابلس قاعدة

لوية الغربية ، وهى محاولة تؤيدها انجلترا دفعاً لمطامع روسيا التى تطالب أيضاً بطرابلس .

والظاهر أن أمريكا لن تقف فى مقاومة التيار الشيوعى عند مساعدة اليونان وتركيا . فقد ورد فى الأنباء الأخيرة ما يدل على أن أمريكا تزمع مساعدة فرنسا اقتصاديا وذلك لتمكينها من مقاومة الضغط الشيوعى الذى يهدد لديها كل استقرار ونهوض ويخشى إذا عجزت عن مقاومة أن تنحدر إلى معترك الفوضى .

وتشعر روسيا السوفيتية بخطورة التدخل الأمريكى فى شؤون البلقان والشرق الأوسط على سياستها ومشاريعها . وقد ظهر صدى خطاب الرئيس ترومان فى تعليقات الصحف السوفيتية وحملاتها على مشاريع الاستعمار الأمريكى بعنف . ولكن أقطاب الكرملين لم يفصحوا حتى اليوم عن الاتجاهات الجديدة التى يمكن أن تجنح إليها روسا لمقاومه السياسة الأمريكية .

وتثير السياسة الأمريكية الجديدة فى داخل أمريكا ذاتها كثيراً من الريب والاعتراضات . وقد حمل عليها كثير من قادة الرأى ، وفى مقدمهم مستر ولاس نائب الرئيس السابق حيث وصفها بأنها سياسة استعمارية سياسة عنف وتحد تؤدى إلى الحرب . ورأى البعض الآخر أنها مناقضة لميثاق الأمم المتحدة ، ولكنا رأينا مجلس الأمن حين اثيرت لديه هذه المسألة يقر أمريكا على برنامجها لمساعدة اليونان وتركيا ويأبى كل تدخل فى شأنه .

تلك هى أطوار الدبلوماسية الأمريكية فى نحو قرن من الزمان . فقد بدأت فى أوائل القرن الماضى حريصه على عزلتها التى قررها مبدأ مونرو ، ثم خرجت عن عزلتها التاريخية لأول مرة فى الحرب الكبرى ، ولكنها سرعان ما انكمشت وعادت إلى التمسك بعزلتها . ومنذ الحرب العالمية الثانية تعود أمريكا فتهجر عزلتها وتنزل بكل قواها ومواردها إلى ميدان الكفاح العالمى سواء فى الحرب اوالسلم . وهى اليوم تنزل إلى ميدان التنافس الاستعمارى الاقتصادى والسياسى لأول مرة فى تاريخها . وكل ما هنالك يدل على أن أمريكا سوف تمضى فى سياستها الجديدة قدما ، وأنها لن تستطيع نكوصا إلى الوراء ولن تعود إلى عزلتها المأثورة ؛ فسبيل هذه العودة قد انتهى ، فما سده ، بما ارتبطت به أمريكا من العهود والمصالح الدولية والاستعمارية الخطيرة ، و بما حققته لنفسها بانتصاراتها

فى الحرب الأخيرة من نفوذ عالمى تدعمه القوة الحربية والاقتصادية .

على أنه يبقى دائماً من مذهب مونرو شطر تتمسك به أمريكا وتحرص أشد الحرص على تطبيقه ، وهو ما ينص عليه من أن أمريكا لن تسمح لأية دولة من الدول الأوربية بأن تقوم بأى ضغط أو تدخل فى شؤون نصف الكرة الغربى . وقد كان مذهب مونرو يضع هذا الانذار للدول الأوربية مقابل العهد الذى أخذته أمريكا على نفسها من أنها لن تحاول تدخلا فى الشؤون الأوربية . ولكن ظروف العالم قد تغيرت اليوم تغيراً عظيما ، ولا تجد الدبلوماسية الأمريكية اليوم غضاضة فى أن تتحرر من هذا العهد القديم .

محمد عبد الله عنانه